المجلس السابع

في مقام التلقي لعهد الاستخلاف الإسرائيلي

الدرس الأول

في فضح خيانة يهود ونقضهم لأركان العهد
وما في ذلك كله من حِكَمٍ وعِبَرٍ

١ - كلمات الابتلاء:

قال الله جلَّ حِكْمَتُه: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

عندما كان القرآن ينزل في المرحلة المدنية كان يقوم باستكمال بناء الجماعة المؤمنة لبنة لبنة، وذلك ببيان ما يلزمها في دينها تجاه ربها من جهة، وما يلزمها فيه تجاه نفسها من جهة ثانية، ثم ما يلزمها تجاه غيرها من الأمم من جهة ثالثة.

وكان أهل يثرب قبل الإسلام يرون لجيرانهم من اليهود تميزًا وفضلًا؛ لما عندهم من العلم بالكتاب، فكان ذلك يشكل لعرب المدينة عقدة نقص، خاصَّة وهم مجرد عرب أميين، والآن ها هم أولاء قد سبقوا إلى الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام،

وها هو ذا القرآن يتنزَّل فيهم، يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون! ها هو الآن يعلمهم حقيقة هذا الصنف البشري الذي كان يستعلي عليهم بعلمه، ويتوعَّدهم بقرب ظهور نبي منهم ينصرهم الله به على أهل الأرض! فها هو ذا النبي قد ظهر بالفعل، ولكن من غيرهم بل من العرب الأميين! ثم ها هم بنو إسرائيل الآن يكفرون به ولا يؤمنون! ومِن ثَمَّ جعل القرآن يطالبهم بالوفاء بعهد الإيمان وتصديق الرسول ﷺ، كاشفا - من جهة - عن مثالبهم وخيانتهم! وفي ذلك ما فيه - من جهة أخرى - من تغذية للجماعة المؤمنة بالمدينة، وشعورها بعزة الإيمان. ولما فضح الله بني إسرائيل بخياناتهم سقطوا في عين أهل يثرب! وانكشفت لهم خرافة السبق الذي كانت تستعلي به يهود عليهم!

كان القرآن قد بشر بالهدى من بداية المدخل القرآني ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾، ثم صنف البشرية إلى الأصناف الثلاثة: مؤمنين وكفَّارًا ومنافقين، ثم طالبها جميعًا بالإيمان محتجًّا عليها بحقِّ الخالقيَّة، وبما جعل الله لآدم من أمانة الاستخلاف في الأرض! ثم ختم ذلك السياق كله بوجوب ترقب الهدى القادم مع الرسل والأنبياء؛ قصد اتباعه؛ إذ بذلك وحده يكون الاستخلاف، وبه وحده تستقيم السبيل إلى الله. والآن، ها هو الهدى قد جاء، جاء قرآنًا عربيًّا واضح البيان، قوي الحجة والبرهان.. فآمن به من آمن، وكفر به بنو إسرائيل مع الكافرين! كفروا به وهم أعلم الناس به! فهم أهل كتاب سابق، كان فيهم هدى، وكان منهم رسل وأنبياء، وصِدِّيقون وشهداء.. ثم قست قلوبهم من بعد ذلك؛ فغيَّروا وبدَّلوا وأفسدوا كثيرًا! فانتزع الله الخلافة منهم، وأنزل عليهم الذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله عظيم، ولعنة منه إلى يوم الدين!

ومِن ثَمَّ جعل يعرض علينا نموذجًا لاستخلاف بني إسرائيل في الأرض، كيف كان؟ وما أسبابه وعلله؟ وما خصاله وطبائعه؟ ثم كيف كان انهياره؟ ولماذا؟..

كان بنو إسرائيل يشكلون جوارًا غير عاديّ للمسلمين، سواء على المستوى الجغرافي أو الديني. وكان لابد في بناء الجماعة المؤمنة من وضع لَبِنَات هذه العلاقة في محلِّها المناسب تصوُّرًا وممارسةً! ولذلك انتقل من قصة استخلاف آدم عليه السلام، إلى قصة استخلاف بني إسرائيل مباشرة، رغم أنهم مسبوقون برسل وأمم شتى!

وخلافة بني إسرائيل هي أوسع خلافة فصَّل القرآن في قصها تفصيلًا. ومنها في هذا الجزء من القرآن مشاهدُ وفصولٌ، هي حِكَمٌ كلها وعِبَرٌ جميعها. ومن ثَمَّ جعل القرآن يصنع من مادتها لَبِنَاتٍ لعمران المجتمع الإسلامي الجديد، الذي بناه بالمدينة، حتى تمايز المجتمعان واستبانت خصائص كل نموذج منهما! فانكشفت حقيقة مجتمع بني إسرائيل الشيطانية، بما يطبعه من تحدٍّ للربِّ ﷻ وتمرُّد عليه، وبما يطبع معاملتهم لأوامر رسلهم وأنبيائهم من تباطؤ وتلكؤ، بل من غدر وخيانة! دأبوا على الطغيان ومردوا عليه إلى درجة استحقوا بها لعنة العزيز الجبار! وكيف لا؟ وقد صار مجتمعهم بيئة شرٍّ خالص! بيئة ترتفع وتيرة شرِّها إلى حدِّ قتل الأنبياء والفتك بهم! يا ويلهم! وإلى جانبهم قريبًا تنبت فسيلة خضراء جميلة، طاهرة مطهَّرة، إنها فسيلة المجتمع الإسلامي الجديد، مجتمع المؤمنين المسلمين لله ربِّ العالمين.. قلوبهم مشوقة بحبِّ الله ورسوله، ومواجيدهم تلتهب بجوى الانتظار لأمر رسول الله! جند مجندون لنصرة الحقِّ، مصطفُّون أبدًا ينتظرون من الرسول إشارة! لغتهم رحمة وسلام، وأدبهم سمع وطاعة، وعبادتهم صلاة وجهاد! تمامًا كما وصفهم الرحمن في التوراة والقرآن، قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ [الفتح: ٢٩].

فهذان مجتمعان يقوم أحدهما على أنقاض الآخر.. تُنزع النبوة من قوم وتبعث في آخرين! ويُمكِّنُ الاستخلاف لأمة من بعد ما قُبض من أخرى! وإذا أمكن أن نلخِّص طبائع كل من المجتمعين في كلمات فلنا أن نقول: إن مجتمع بني إسرائيل هو مجتمع خيانة وتمرُّد! بينما مجتمع المسلمين هو مجتمع وفاء وطاعة! وإذا تميز المجتمع الإسرائيلي بشعار: « سمعنا وعصينا »، فقد تميَّز المجتمع الإسلامي بشعار « سمعنا وأطعنا! » ومن ثم جعل الله المجتمع الإسلامي الأول نموذجًا لكل تجديد عمراني إلى يوم الدين!

وفي هذا دليل على أن احتكاك المسلمين ببني إسرائيل؛ كما كان قضيةً في زمن النبوة؛ فسيكون قضية أيضًا في زمن ما بعد النبوة! تَخْفُتُ نارها حينًا وتتوهج حينا آخر..! ولزماننا هذا في ذلك ما له من حرائق واشتعال! فلنبدأ القصة إذن من أول مشاهدها!

قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ إسرائيل هو لقب نبي الله يعقوب عليه السلام. ومعنى « إسرائيل »: « عبد الله ». وأما أبناؤه فهم يوسف وإخوته أصحاب القصة المشهورة. فمن نسلهم جعل الله أمة بني إسرائيل، واستخلفهم في الأرض زمنا، وجعل فيهم أنبياء وملوكا، وأنعم الله عليهم بما لم يؤت أحدا من العالمين! إلى أن حكم الله عليهم بالتيه فتفرقوا في الأرض أشتاتا! ومن شتاتهم كان هناك بالمدينة قبائل هي بنو النضير وبنو قينقاع وبنو قريظة. وهم الذين احتكوا بالمسلمين من أهل يثرب، وكان لهم مع النبي ﷺ جدال وسجال! فسجل القرآن في أجوبته كثيرا من جدالاتهم وأسئلتهم.

وها هو ذا الآن خطاب الله يناديهم: أن يا بني العبد الصالح إسرائيل! أسلموا لله مع المسلمين! إنكم أنتم أعرف بطبيعة هذا الخطاب، وإنكم لأدرى بأنه من عند الله لا من عند بشر، فاتقوا الله وكونوا من المسلمين، وانصروا هذا النبيَّ الذي تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة وانضموا إلى دعوته! واذكروا أنني قد أنعمت عليكم نعما لا تحصى بسبب إيمان أجدادكم، وصلاح آبائكم الأولين. لقد واثقكم الله ﷻ بموثق بعهد أن إذا بُعث فيكم نبي مصدقا لما معكم آمنتم به ونصرتموه! فكيف تنقضون اليوم عهد الله وكيف تكفرون؟ ويلكم كيف؟ وأنتم أبناء عبد الله الصالح يعقوب عليه السلام: إسرائيل! كيف وها هو ذا العهد ما يزال معلقا فوق رؤوسكم؟ يشهد به عليكم الله والملائكة والمؤمنون! قال تعالى مبينا بنود ذلك العهد وميثاقه: ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ١٢].

فهذا هو عهد بني إسرائيل [١] إنه عهد الإيمان بالله وبرسله والدخول تحت تكاليف شريعته، ونصرة من يبعثه الله من رسله! فمن أوفى بهذا أوفى الله له بعهده وهو إدخاله الجنة. وأما من كفر فهم يعلمون ما معنى غضب الله ونقمته أكثر من

(١) سيأتي بيانه مفصلا بهذه السورة خلال المجلس الحادي عشر.

غيرهم؛ لأن فيهم كان المسخ وشتى ضروب الفضح وتكاليف الإصر والأغلال! ولذلك قال بعد التذكير بنعمته عليهم: ﴿ وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ فأعقب الترغيب ترهيبًا، على منهج القرآن في الدعوة والبلاغ.

ثم يستأنف خطاب التقريب والتحبيب بقوله تعالى: ﴿ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ أي: آمنوا بهذا القرآن الذي جاء مُصَدِّقًا للتوراة والإنجيل، ومُبَيِّنًا لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه! فهو كتاب من اللَّه قوي الحُجَّة واضح البيان! وأهل الكتاب هم أولى الناس بالإيمان به؛ لِما عرفوا من الحقِّ فيما يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل! ولذلك قال: ﴿ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ﴾ لأن كفرهم به غير معقول! فربما كان كفر الأميين من عبدة الأوثان أو غيرهم من المجوس مثلًا مما يفهم العقل سببه، فيحتاجون إلى فترات للتأمل ودعوات متوالية للتفكُّر والتدبُّر؛ إذ هؤلاء إنما هم أهل جهل وجهالة! أما أنتم - يا أهل الكتاب - فأهل علم سابق بالكتاب، وبالوحي والنبوة، وبالبعث والنشور والجنة والنار! فكيف تكفرون بمن جاءكم بهذه الحقائق نفسها وتفصيلًا لكلِّ شيء؟ إذن تكونون بذلك ﴿ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ... ﴿٤١﴾ ﴾ بمعنى أعظم كافر وأشد! فالأَوَّلِيَّةُ ههنا هي أوليةُ ترتيب معنوي لا أولية ترتيب زمني! (١).

ثم نهاهم الحقُّ تعالى عن جعل الإيمان بالقرآن قضية تجارية دنيوية، كأي صفقة من صفقات التجارة! وحذَّرهم من مَغَبَّة هذا الصنيع الشنيع، داعيًا إياهم إلى اتِّقاء نقمة اللَّه وعذابه! ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ فقد كان لليهود بالمدينة مركز سيادة بما يزعمون أن لهم من العلم والخصوصية! ناشرين في الناس

---

(١) اضطرب في ذلك المفسرون؟ فقد ذهب الإمام الطبري إلى أن « أول » ههنا بمعنى « أول كافر » من أهل الكتاب. (ن. تفسير الطبري) وقال ابن كثير: « أول كافر به » من بني جنسكم أي من بني إسرائيل، وكأن الخطاب موجهٌ ليهود المدينة خاصةً (ن. تفسير ابن كثير) وذلك للخروج من مشكلة الترتيب التاريخي للكفر؛ إذ كانت قريش أسبق إلى الكفر. لكن جعل « أول » بمعنى المرتبة المعنوية، والدرجة في الفعل من حيث القوة والضعف، لا بمعنى الترتيب الزمني، يخرجنا من الإشكال مطلقًا. كما تقول: (فلان أول مصلح، أو أول مجرم) أي أقوى أو أخطر، مع أنه قد يكون مسبوقا في الفعل بكثير. وهذا التوجيه أليق بالسياق القرآني ههنا لمن تدبره. والأولية بمعنى الرتبة المعنوية استعمال عربي فصيح، وشاهده من القرآن نفسه، وهو قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الزخرف: ٨١].

خرافة « شعب الله المختار! » فتراءى لهم أنهم إذا ما هم أسلموا ذابوا في المجتمع العام للمسلمين، فلا رياسة بعدُ ولا خصوص! وهي رياسة تدرُّ على أحبارهم وكُهَّانِهم مكاسب مادية من بني إسرائيل أنفسهم ومن غيرهم! وما كان لديهم استعداد للتضحية بهذا الكسب الدنيوي الفاني في سبيل الإيمان بهذا القرآن!

ثم يستأنف الحقُّ تعالى الكشف عن خصيصة ثانية من خصائص يهود، وهي خلط الحقائق، وتلبيس الحق بالباطل! مع كتمان الحقيقة عن الناس؛ قصد التضليل والتجهيل! ولم يزل هذا ديدنهم في السياسة والإعلام وفي كلِّ شيء إلى يوم الناس هذا! قال ﷻ: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ واللبس والتلبيس هو بمعنى التغشية والتغليف على سبيل التدليس والتزييف! كالذي يصنع خاتمًا من معدن خسيس فيصبغه بماء الذهب، ثم يعرضه على أنه ذهب خالص! أو - على العكس - كالذي يُهَرِّبُ الذهب الخالص فيصبغه بماء معدن خسيس؛ ليبدو أنه مجرد حديد أو قصدير! وكذلك كانت يهود تصنع بحقائق التوراة! تلبس حقَّها بباطلها وتعرضها للمؤمنين على أن هذا كلامُ اللَّه! لتكتم ما بها من موافقات للقرآن، وكذا ما بها من بشارات بمحمد خاتم النبيين عليه وعليهم الصلاة والسلام.

ولذلك دعاهم اللَّه تعالى إلى الإسلام له وحده دون سواه، والاستسلام إلى الحقِّ المبين الذي نزل من عند اللَّه، وذلك بأمرهم بالصلاة التي هي رمز الخضوع للَّه ربِّ العالمين! وأداء الزكاة التي هي رمز توحيد المالكية والتخلِّي عن الأنانية التي هم في أغلالها يرزحون! فقال: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ أي اخضعوا للَّه مع عموم المؤمنين، وادخلوا بتواضع في سواد المسلمين! ودَعُوا كبرياءكم الذي به تتميزون وتتألهون! ثم ترتفع وتيرة الخطاب بسؤال إنكاري شديد التقريع: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ كان أحبار بني إسرائيل يظهرون أنفسهم بمظهر الربيين المصلحين، فيأمرون الناس بالبر - وهو جماع الخير - وينهون الناس عن الكفر بما عندهم من النبوة والعهد مما هو في التوراة، فوبَّخهم اللَّهُ تعالى بهذا السلوك المتناقض، ناعيًا عليهم جحودهم لحقيقة محمد ﷺ الثابتة عندهم في التوراة! ونقضهم لميثاق اللَّه بكفرهم به عليه الصلاة والسلام! فهذا عمل لا يصدر إلا من عقل مُختلٍّ!

ثم يستأنف أسلوب التقريب والترغيب بقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝٤٦ ﴾ هذا علاج عظيم من صيدلية الرحمن! إنه علاج داء الوهن! داء حب الدنيا وكراهية الموت، وإنه لعلاج عام لكلٍّ من طلبه.. الاستعانة بالصبر والصلاة؛ فأما الصبر فمنزل من منازل الصديقين. ومعنى الصبر في اللغة المنع والحبس للشيء، فالصابر: المانع، والمصبور: الممنوع. تقول صبر الراعي الفصيلَ أو الْحَمَلَ عن الرضاع منعه منه. ولذلك سُمِّي رمضان بشهر الصبر لأن الصائم يمنع فيه نفسه الطعام والشراب وسائر الشهوات. وهو في الشرع: مجاهدة النفس على الرضا بحمل تكاليف الشريعة، والبقاء داخل حدود الله لا تتعدَّاها فعلًا وتركًا! وإلجامها بلجام الشرع أن تمتد جوارحها أو نظراتها إلى شيء من محارم الله!

وعلى هذا انقسم الصبر إلى ثلاثة أقسام، أولها: الصبر على الترك، أي ترك ما يثقل على النفس الانقطاع عنه من شهواتها المألوفة لديها! والثاني: الصبر على الفعل، وهو الأفعال الواجبة في الإسلام كالصلاة والزكاة والجهاد، وغيرها فهذه لا تدرك إلا بصبر. والثالث: الصبر على قضاء الله وقدره. والقدر نوعان: خير وشر. وكلاهما يتطلبُ صبرًا. فالصابر على الخير هو القائم بحقِّ الله فيه. والصبر هنا هو بمعنى الشكر. وهو ليس بالأمر اليسير لمن جرَّب الصبر على الغنى مثلًا! وأما الصبر على الشرِّ فهو واضح البيان إذ النفس بطبيعتها تكره الشر. والرضا بقضاء الله فيه والاحتساب هو عين الصبر!

[وأما الصلاة فهي زاد الأنبياء والصديقين للمهمات الصعبة! وهي أنيس الغرباء والمهمومين في الليالي الحالكة! ومطية التوابين الذين تأخرت بهم الذنوب حتى غاب الركبُ عنهم وانقطعت أشباحه، فهم الآن بصلاتهم سُرَاةٌ على الأثر يسعون، يستدفئون من برد الليل بدموعهم، ويستأنسون من عوائه بنشيجهم، باكين مُتبتِّلين بين يدي التوَّاب الرحيم! عساهم يحمدون عند الصبح السُّرَى، فيلتقون الأحبة!]

نعم هكذا كانوا.. فإذا ثقل عليكم أحبار يهود ترك رياستكم ومفاخر مراكزكم الدينية والاقتصادية فهذا علاج شافٍ كافٍ: الصبر والصلاة! والضمير في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ... ۝٤٥ ﴾ هو عند بعض المفسرين عائد على الصلاة، وعند بعضهم

على الوصية، وهو الأرجح عندنا لأن كلًّا من الصبر والصلاة مشقة، وهما في الوصية بهما كالأمر الواحد! ومثله في القرآن قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥] يقصد: يُلَقَّى الوصيةَ بالأعمال المذكورة قبل الآية من الدعوة إلى الله، والدفع بالتي هي أحسن.

نعم وإنها لوصية ثقيلة شاقة! ترك الدنيا بما فيها من أجل وعد أخروي صِرف! هذا أمر لا يطيقه إلا الخاشعون، أي الذين عرفوا مقام ربِّهم فخافوه، وعرفوا حقيقة الدنيا فنبذوها وعرفوا حقيقة الآخرة فأحبُّوها! والخشوع خضوع القلب لله ذي الجلال مهابةً ومحبةً! ولا يتحقَّق بكماله إلا لمن عرف الله حقًا! فالأمر بالخشوع أمر باتخاذ أسبابه والسير في طريقه، فإنما هو هبة من الله ذي الجلال والإكرام!

وبَيَّنَ تعالى مسلك تحقيق الخشوع بأمرين، أولهما: تحقيق الظن بلقاء الله أي اليقين باليوم الآخر، نشورًا وحشرًا، وحسابًا وجزاءً، وجنةً ونارًا! ولفظ « الظن » في هذا السياق هو بمعنى اليقين؛ لأن العرب تسمي هذا بذاك. والثاني: تحقيق حسن الظن بالله في حكمه، وأن أعمالنا كلها راجعة إليه تعالى وهو لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

ثم يستأنف الرحمن سبحانه النداء لبني إسرائيل، بنسبتهم مرة أخرى لأبيهم يعقوب النبي الصالح، على سبيل التحبيب والتقريب إلى الإيمان، مذكرًا إيَّاهم مرة أخرى بنعمه عليهم وما جعله لهم زمن استخلافهم من فضل على كل العالمين! فقال سبحانه: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ثم رهَّبهم - بعد ترغيب - باتقاء يوم الجزاء والحساب! يومَ لا يغني أحد عن أحد شيئًا، ولا تقبل شفاعة في كافرٍ مات على كُفْرِه! ولا يقبل في نفس فداءٌ مما يُظَنُّ أنه يَعْدِلُ ما تستحق من العذاب! ولذلك سماه عَدْلًا. وأيُّ عدل يوفي يومئذ بحقوق الله على من مات كافرًا بالله؟ كيف؟ وما دخل المؤمنون العاملون الجنة إلا برحمة الله! كيف؟ والله مالك كل شيء وما للعبد المملوك من شيء! ذلك حكم الله على كل نفسٍ كافرة، فلا نصرة لها من أحد ولا إنقاذ! إذ لا مُلك ولا سلطان يومئذ إلا لله الواحد القهار! فذلك كله قول الحق موجزًا في كلمات: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي!

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في عشر رسالات كاملة هي:

الرسالة الأولى: في أن شكر النعم من أعظم حقوق اللَّه تعالى على العباد. ونعمه تعالى لا تحصى، كل الناس في بحارها غارقون! فالشكر قَيْدُ النعم، وكُفْرُهَا زوالُها. فإن بقيت النعمة مع الكفر بها فهو استدراج لنقمة أعظم من مجرد زوالها! وليس للمؤمن من شكر إلا أن يسلم نفسه للَّه عبدًا!

وشكر النعمة له ترتيب شرعي، هو أولًا: أداء حق اللَّه فيها إن كانت مما تجب فيه الزكاة. ثانيًا: صرْفُها فيما جعلها اللَّه له من وظائف ومصالح شرعية، من أمور المعاش والمعاد. ثالثًا: عدم إتيان منكرٍ بها أو الإعانة بها على ذلك بأي صورة من الصور. وهذا جارٍ في نعمة المال وغيره، بمعنى أنه قانون كل نعمة من أي صنف كانت، فمثلًا نعمة الخِلْقَة مما أنعم اللَّه به على العبد من يديه ورجليه ولسانه وسمعه وبصره، وسائر جوارحه، كل ذلك واجب أداء حق اللَّه فيه، وصرف طاقته فيما خلق له من وظائف شرعية، والضن به عن اقتراف الإثم والفحشاء وسائر ضروب المنكر؛ ولذلك قال النبي ﷺ: « **كل سُلامَى من الناس عليه صدقة؛ كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل على دابته فيحمل عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة. والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة، ودَلُّ الطريق صدقة. وتميط الأذى عن الطريق صدقة** »[1] وكذلك الأمر جارٍ في نعمة العلم، ونعمة السلطان، ونعمة الشباب.. إلخ. فما من نعمة إلا وللَّه على العبد فيها حقوق. وتصرف المؤمن معها بشهود العبدية في نفسه يحميه من استشعار المالكية ووهم السيادة، وفي ذلك ضمان لتصرفه فيها بما يرضي اللَّه ﷻ.

الرسالة الثانية: في أن الوفاء بالعهد من أعزِّ الصفات الإيمانية! فالوفاء هو شرف المؤمن وعِزَّته وتاجه وجماله. وتلك خصلة أضاعتها الأمم الكافرة قديمًا وحديثًا؛ بسبب ما عشَّشَ في قلوبهم المريضة من فلسفات نفعية انتهازية! فكما قال الأقدمون منهم: ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران: ٧٥] كذلك يقول فَلاسِفَتُهم

---

(١) متفق عليه.

اليوم أن المنفعة هي الإله! وأن الغاية تبرر الوسيلة! وصارت « الميكيافيلية » هي الطابع العام لأنظمة السياسة والاقتصاد والإعلام! ظلمات تعدت محيطها الذي ولدت فيه من غرب العالم، وامتدت أدخنتها إلى هذا العالم الإسلامي الممزق الأشلاء، حيث راجتْ عملةُ الخيانة وعزَّتْ عملةُ الوفاء! والمؤمن وحده يضرب في تيه هذه الظلمات بشمعة وفائه، محاطًا بالرياح الهوج من كلِّ مكان! ومع ذلك! الوفاء الوفاء، فلا دين لمن لا وفاء له!

الرسالة الثالثة: في أن كفر المسلم المرتد هو من أسوأ أنواع الكفر! فإذا قيل لأهل الكتاب إذ نُودُوا للإيمان بالقرآن: ﴿ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ... ﴿٤١﴾ ﴾ بمعنى أكبر كافر وأسوأ؛ بسبب ما سبق إليهم من العلم القديم؛ فكيف يقال لمن ارتد وقد ولد ونشأ في بيئة مسلمة، يتلى فيها القرآن صباح مساء، ويرفع الأذان وتقام الصلوات، وتؤدَّى الجُمَع والجماعات؟ ألا ذلك هو شر الكفر وأفدحه والعياذ بالله! إذ كل السبل كانت ميسرة له كي يعرف دينه أصوله وفروعه، لكنه أعرض عن ربِّه واتبع هواه؛ فأعرض الله عنه وأشقاه!

الرسالة الرابعة: في أن الاتِّجار بالدين من أعظم المصائب في الدين! وهو يكون بالأحوال كما يكون بالأقوال. فأما كونه بالأحوال فهو مثل الرجل الذي يتحلَّى بصفات أهل الصلاح في ظاهر ملبسه ومنطقه، لكن قلبه من ذلك خواء! ويتصدَّر للمهمات الدينية ذات الشهرة بين الناس، ويحرص على أن يُعرف بشيء مما يكسب ثقة الناس، وإنما هو في ذلك كله صاحب مطامع ومنافع! وأما كونه بالأقوال فهو كقارئ القرآن والخطيب والواعظ، يريد بذلك كله حظًّا دنيويًّا وشهرة زائفة، ولا نظر له إلى الآخرة بعمله ذاك البتة، والعياذ بالله!

وقد ورد في الحديث تحذير شديد من خطورة هذا وذاك، فعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: « إنَّ أوَّلَ الناسِ يُقضَى - يومَ القيامةِ - عليهِ رَجُلٌ استُشهِدَ فأُتِيَ بهِ فعرَّفَهُ نِعَمَهُ [يعني: عرَّفه ربُّه نِعَمَهُ] فعَرَفَها، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيكَ حتى استُشهِدْتُ! قال: كَذَبْتَ! ولكنك قاتلتَ لأن يقال: هو جريء! فقد قيل! ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقِيَ في النارِ! ورَجُلٌ تعلَّمَ العلمَ وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتِيَ به فعرَّفه نِعَمَهُ فعرَفَها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلمتُ العلمَ

وعلَّمتُه، وقرأتُ فيكَ القرآنَ. قال: كذبتَ ولكنك تعلمتَ ليقال: عالِمٌ، وقرأتَ القرآنَ ليقال: هو قارئٌ؛ فقد قيل! ثم أمر به فَسُحِبَ على وجهه حتى أُلْقِيَ في النار! ورَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عليه وأعطاه من أصناف المال، فأُتِيَ به فعرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيلٍ تحبُّ أن يُنْفَقَ فيها إلا أنفقتُ فيها لكَ! قال: كذبتَ ولكنَّكَ فعلتَ ليقال: هو جواد؛ فقد قيل! ثم أمر به فَسُحِبَ على وجهه حتى أُلْقِيَ في النَّارِ! »[1] ويقاس على هذه الأمور كل فعل له صبغة دينية أصالة أو تبعًا، كترأس الجمعيات الخيرية، وإدارة المعاهد الدينية، وكل مجالات الظهور باسم الدين. فكل شيء من ذلك طُلبت منفعته في الدنيا لم يكن لصاحبها في الآخرة نصيب! جعلني الله وإيَّاكم ممن أخلص الله أعمالهم وأحوالهم لوجهه الكريم!

الرسالة الخامسة: في أن كتمان العلم من كبائر الذنوب! وأن إصدار الفتاوى على موازين الهوى من أشد الفتن على صاحبها وعلى الناس! سواء كان هوى سياسيًّا أو حزبيًّا أو طائفيًّا. فزيادة على ما في فتوى الهوى من تحريف للحكم الشرعي فهي متضمنةٌ لمعنى كتمان العلم؛ بتجنبها قول الحق! وهذا كان من أبرز أسباب ضلال بني إسرائيل، حيث صارت الفتاوى بينهم عقود تجارة تباع وتشترى! فما أبقى الله لهم بعد ذلك من دين!

[إلا أن لنا ههنا ملحظًا لطيفًا نبينه بحول الله، وهو أن ظاهر تعبير (الفتوى بالهوى) ينصرف في الغالب إلى موالاة السلاطين والحُكَّام، حيث تُسترخص لهم الرخص بالحقِّ أو بالباطل، وتؤصَّل قراراتهم في الشرع، سواء منها الزلات والصالحات! وهذا واقع معروف. لكن الذي يخفى هو نوع من (الفتوى بالهوى) ربما عده الجاهل تقوى وورعًا! وهو موالاة العامَّة فيما تشتهي! وقد تشتهي العامة تشدُّدًا في هذا الأمر أو ذاك؛ فيبادر المفتي إلى القول بالتحريم والتجريم! وما ذلك منه إلا مراعاة لميول الشارع وموجة التيار، لا لدليل حقيقي ولا لبرهان شرعي! وربما تمسَّك بشيء من ظواهر بعض النصوص، وهو يعلم أنه لو توسع في الاستدلال، وأعطى للاجتهاد حقه الشرعي؛ ربما وصل إلى عكس ما أفتى به تمامًا! ولكنه لا يحب أن يصل إليه بما استقر في قلبه من هوى خفي! فهذا لا يقلُّ في الحقيقة شرًّا من الأول، فكلاهما

---

(١) رواه مسلم.

مُفتٍ بالهوى، وكلاهما كاتمٌ للعلم!

وقد توعَّد الله الذين يكتمون العلم - بغير عذر شرعي - بأشدِّ العذاب في غير ما آية من كتابه الحكيم، من ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ﴾ أجارني الله وإياكم من عذابه وسوء عقابه، ونجانا من مزالق الهوى والكتمان!

الرسالة السادسة: في أن الداعية الذي يخالف قولُه عملَه تجارتُه عند الله بائرة وإن نَفَقَتْ في الدنيا، وبضاعتُه في الآخرة كاسِدَةٌ وإن راجت على الناس! وبغير إطالة أقول: إن حاله كحال الذي يمشي على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ بِشَفِيرِ الجحيم! فَتَدَبَّرْ!

أما أنتِ يا نفسي المغرورة! أيتها الغافلة عن هذا البلاء العظيم! فيكفيكِ - إن كنتِ متعظةً بما تعظين - حديثُ رسول الله ﷺ إذ قال: « **يُؤْتَى بالرَّجُلِ يومَ القيامة فيُلْقَى في النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كما يَدُورُ الْحِمَارُ في الرَّحَى! فَيَجْتَمِعُ إليه أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ! ما لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فيقول: بَلَى! كُنْتُ آمُرُ بالمعروفِ ولا آتِيهِ وأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ!** » [1] وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **رأيتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي رِجَالًا تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنَ النَّارِ! فقلتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبريلُ؟ قال: الْخُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ! الذينَ يأمرون النَّاسَ بالبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أنفسَهم وَهُمْ يَتْلُونَ الكتابَ أفلاَ يَعْقِلُونَ؟!** » [2].

الرسالة السابعة: في أن الاستقامة على الصلاة والزكاة حقَّ الاستقامة، برهانٌ على صدق التوبة والصلاح. تلك قاعدة القرآن الثابتة في الحكم على الرجال! وقد سبق لنا فيها بيان بالمجلس الأول من هذه السورة المباركة. فالصلاة والزكاة وجهان لحقيقة

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه واللفظ له، كما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت والبيهقي في سننه. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

إيمانية واحدة، تختلف تجلياتها في الظاهر لكن جوهرها في القلب واحد! فأما الصلاة الخاشعة فهي أصدق تعبير عن خضوع القلب والجوارح لله رب العالمين، وهي أجمل تعبير عن أشواق الروح إلى منازل الصفاء والبقاء، والاستسلام الكامل لله! وأما الزكاة فهي التعبير العملي عن مشاهدة المؤمن لعبديته، وتحققه من مملوكيته لمولاه المالك الحق؛ إذ يتصرف في ماله بمقتضى أمر سيده دون سواه، فيحقق بذلك قاعدة الاقتصاد الإسلامي: (المال مال الله، والبشر مستخلفون فيه!) وهي لمن تخلَّق بها قاعدة إيمانية كبرى! وليس عبثًا أن جعل الله هذين الركنين العظيمين في الإسلام علامة التوبة الحقيقية للمشركين المحاربين، إذا ما تابوا وأظهروا الإسلام، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٥] ثم قال في السياق نفسه: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ١١]؛ ولذلك ورد في الحديث قوله عليه الصلاة والسلام: « **الصلاة نور، والصدقة برهان!** »[1].

الرسالة الثامنة: في أن الاستعانة بالصبر والصلاة هو منهاج الربانيين عند الدخول في ابتلاءات الأعمال العظيمة من ثبات على الحقِّ، أو دفع لعدو. ففي الصبر تفويضٌ للملك الواحد الأحد، ورضًا بما قدَّر ودبَّر! وبالصَّلاة ينفتح باب القلب على معراج الروح، فتصفو المناجاة للرحمن، ويَتَلَقَّى القلبُ مددًا لا ينقطع كوثره الفيَّاض! فلا يخرج العبد من صلاته إلا وقد اكتسب هُدًى جديدًا وتأييدًا سديدًا! ومَسَالِحَ[2] من ملائكة الرحمن، تحيط به من كل مكان! ذلك ديدن الأنبياء وزاد الصديقين، ولباس الأولياء والصالحين!

---

(١) جزء حديث رواه مسلم، ونصُّه: عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك! كل الناس يغدو فبائعٌ نفسه، فمعتقها أو مُوبقُها! ».

(٢) المَسَالِحُ: جمع مَسْلَحَةٍ، وهي الجماعة من الحراس المسلحين.

وكان رسول الله ﷺ « **إذا حَزَبَهُ أمرٌ فَزِعَ إلى الصَّلاةِ!** » (١) وعن علي ﷺ قال: « لقد رَأَيْتُنَا لَيْلَةَ بَدْرٍ وما فينا إلا نَائِمٌ غير رسول الله ﷺ يُصَلِّي ويَدْعُو حتَّى أَصْبَحَ! » (٢) وروي أن ابن عباس ﷺ نُعِيَ إليه أخوه وهو في سفر، فاسترجع ثم تنحَّى عن الطريق، فأناخَ فصلَّى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: « **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إلا عَلَى الخَاشِعِينَ!** » (٣) وعن ابن أبي مليكة قال: (صَحِبْتُ ابنَ عباس ﷺ من مكة إلى المدينة، فكان إذا نزل قام شَطْرَ الليل! فسأله أيوب: كيف كانت قراءتُه؟ قال: قرأ: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾ [ق: ١٩] فجعل يرتل ويكثر في ذلك النشيج!) (٤) تلك أحوالهم، فكيف أحوالك يا قلبي العليل؟

الرسالة التاسعة: في أن الآخرة مرة أخرى ومرات! - نكرِّرها كما كرَّرها القرآن بلا ملل أو سأم - هي صمام الأمان لسير السائرين، ونور الطريق للعباد المدلجين! فكيف حالك يا قلبي القاسي يوم لا يجزي أحد عن أحد؟ الكل يجأر هاربًا إلى الله، والكل يبكي ضارعًا إلى الله! لا يهمه سوى عتق رقبته من النار! كيف حالك يومئذ؛ وما من أحد إلا ويستغيث ربَّه: نفسي! نفسي!؟ كيف حالك ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧]. فَالْبِدَارَ الْبِدَارَ يا قلبُ إن بقي في عِرْقك نبضٌ من حياة! اتخذ لك الآخرة هدفا وحيدا وانطلق! قال سيدي رسول الله ﷺ: « **مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وأتته الدنيا وهي راغمة! ومن كانت الدنيا هَمَّهُ جعلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بين عَيْنَيْهِ، وفرَّق عليه شَمْلَهُ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّرَ لَهُ!** » (٥).

الرسالة العاشرة: في طبائع يهود: وهي تتلخَّص بهذا المجلس - على ما أشارت إليه الآيات - **في أربعة أمور**، هي: الخيانة، والتلبيس، وكتمان الحق، والتناقض!

أولًا: فأما الخيانة فنقضهم للعهود، بدءًا بعهد الله الذي واثقهم به زمن موسى ﷺ، إلى عهد رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ، إلى كثير من العهود التي أبرموها مع

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع.
(٢، ٣) أورده ابن كثير عند تفسيره للآية.
(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٤٢/٣).
(٥) رواه الترمذي عن أنس مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

المسلمين في العصر الحديث. فما عقدوا عهدًا إلا نقضوه وخانوه! فقد غدر بنو قينقاع بالمسلمين، ونقضوا وثيقة العهد التي أبرمها رسول الله ﷺ غداة هجرته إلى المدينة مع اليهود، فاعتدوا على امرأة مسلمة في سوقهم، وقتلوا رجلًا من المسلمين انتصر لها. كما نقض يهود بني قريظة عهد السلام مرة أخرى عند انضمامهم إلى الأحزاب في غزوة الأحزاب ضد المسلمين، فجعلوا المسلمين يعيشون أشد الحرج والضيق؛ بحصارٍ من الخارج وخيانةٍ من الداخل! باءت بها يهود ومن والاهم من المنافقين. وقد حاولوا مرارًا وتكرارًا اغتيال الرسول عليه الصلاة والتسليم، بالتسميم وبالسحر وبالقتل غيلةً، حيث حاول يهود بني النضير قتله ﷺ بحجر ضخم يلقونه عليه من أعلى حصنهم وهو يحاورهم، فعصمه الله منهم! ولذلك لما نصر الله رسوله قام بمحاصرتهم وإجلائهم من المدينة إلى الأبد. ويشهد التاريخ أن الذين ألَّبوا الغوغاء على قتل عثمان بن عفان ﷺ يهود! وأن الذين أسقطوا الخلافة الإسلامية في العهد العثماني يهود! وأن الذين كانوا وراء نشر الفلسفات الإلحادية والشيوعية في العالم الإسلامي يهود! حتى قيل: « حيثما وجدت خيانة فابحث عن يهودي! ».

وعجبًا لقوم من العرب ما يزالون اليوم يأملون في نجاح معاهدات سلامٍ كاذبٍ مع اليهود! فها هي ذي العقود والعهود قد بقيت رسومًا شاحبةً على صكوكها، وكلامًا فارغ المحتوى ينثرونه للاستهلاك الإعلامي على موائد اللقاءات والمؤتمرات، والدم ينزف سخينا على الأرض بغير انقطاع!

ثانيًا: وأما التلبيس، فإنهم قد احترفوه احترافًا ولهم فيه خبرةٌ شيطانية وأسرارٌ صناعة! فما من مجال تعلَّق بالحقوق أو بالسياسة والإعلام إلا قام منهجهم في صياغته على التلبيس والتدليس! حيث يخلطون الحق بالباطل، ويموِّهون في العبارات، بما يجعل المتلقِّي يفهم ما يطمئنه من جهة، ويجعل لهم مخرجًا للنقض والخيانة من جهة أخرى! فهم يصنعون المصطلح ويحتكرون دلالته وتفسيره! ولهم اليوم في المختبرات اللسانية الحديثة جيوش من كهنة اللغويين، الذين تخصَّصوا في هذه الصناعات الكلامية مما ترمينا به وسائل الإعلام صباح مساء! ذلك هو سحر هذا العصر، وهم كُهَّانه وسدَنَتُه!

ثالثًا: وأما كتمان الحق حيث يجب أن يعلن فهو ظلم، كما يصنعون عند أداء

الشهادات، وعند المعاهدات وعند نقضها، وأمام القضاء الدولي، وفي المؤسسات العالمية التي وكأنها ما أنشئت إلا لمناصرتهم على البغي! فلا تجد منهم من يعلن الحقيقة إذا صدرت منهم خيانة، ويقول: اللّهم إن هذا الفعل خيانة! بل يتواطؤون على المنكر تواطؤا! ويسكتون على الجريمة، فلا يصرحون ولا بإشارة إدانة للفعل القبيح! بل يمجدون فعل المجرم و (يتفهمونه) كما يعبرون في لغة السحر السياسي اليوم! ثم بما هم يشتغلون في دوائر مظلمة ولوبيات مغلقة، حيث يُعدون للمسلمين من الخراب والدمار ما اللّه به عليم؛ فإن الْمُعَاهِدَ لهم لا يستطيع معرفة مراميهم من كل بند عقدوه! حتى صار الحوار معهم ضربًا من الغرر والمقامرة ليس إلا!

رابعًا: وأما التناقض فهو خُلُقهم العجيب الذي لا يخجلون منه أبدا! فكما أنهم كانوا يأمرون الناس بالبرّ وينسون أنفسهم، فكذلك هم اليوم يطالبون الناس بالديمقراطية واحترام حقوق الإنسان، وهم أسوأ خارق للعدالة ولحقوق الإنسان! ويصرح أحدهم تصريحًا هنا لا يجد أي حرج في التصريح بمناقضه هناك! يلعنون دفاع المسلمين عن أنفسهم و « يتفهمون » بطش جيوشهم بهم وتذبيحهم لأطفالهم! حتى اشتهروا في عالم السياسة بمصطلح « الكيل بمكيالين »!

تلك صور من طبائع يهود قديمًا وحديثًا، سُنّةٌ ثابتة من سنن اللّه في خلقه، الكيد واحد والتجليات شتى! ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥].

٤ - مسلك التخلق:

وقضية هذا المسلك هي في الاستفادة الإيجابية من سلبيات بني إسرائيل التي نصّ عليها القرآن. وهي تتلخّص في مجاهدة النفس للتحلّي بالصفات التالية: شكر النعمة، والوفاء بالعهد، والاستجابة للّه، والرهبة، وإخلاص الدين للّه، وأداء حقوق اللّه، وإدانة النفس في جنب اللّه، والصبر، والتهجّد بليل، ومشاهدة أحوال الآخرة في كلّ وقت وحين. فهذه عشر صفات، كل صفة منها منزل من منازل الإيمان، لا يُكتسب مقامه - على الحقيقة - إلا بمجاهدة مستمرة، وسير دؤوب.

ويتوسل إلى ذلك كله بمسلكين اثنين، إذا تحقّق العبد بهما سهل عليه التخلّق

بالصفات العشر. فالمسلك الأول: معرفة النفس، وذلك بالتفكر العميق فيها، ومراجعة أعمالها من يوم وعيها بنفسها إلى ساعتها هذه، والنظر إلى ذلك كله في ضوء مسيرة الزمن وتصرُّم العمر! والمسلك الثاني: معرفة اللَّه، وذلك بالمطالعة الدائمة لشؤون الربوبية، وهذا يحصل بتدبُّر مواطن ذلك في القرآن الكريم، وبالتفكُّر في خلق السموات والأرض. فمن حصل له هذا بالفعل في حقِّ اللَّه خافه! ورجع من سياحته التدبرية أو التفكرية بزاد عظيم، ألا وهو زاد التقوى! فتحقيق المعرفة باللَّه تقي المهالك بإذن اللَّه، وإنما هلكت يهود بسبب جهلها باللَّه! فلما نسبوا إليه - سبحانه - ما لا يجوز من الصفات تجرؤوا على كبائر الموبقات! قال ﷻ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١].

والسبب في كون معرفة اللَّه - بعد معرفة النفس - تجعل العبد يترقى بمراتب الإيمان؛ هو أنه بالتعرف إلى جلال اللَّه وسلطانه العظيم، ومشاهدة أنوار تدبيره لأمر الملك والملكوت؛ بما لا قدرة لبشر على إحصائه ولا على معرفة تفصيله! بذلك وبما في معناه يمتلئ قلب العبد خوفًا ورهبًا، وذلك على قدر ما حقَّق من معرفة وعلم به تعالى. فإذا حصل له ذلك سلس له الطيران بجناحي الخوف والرجاء، وهما مطية كل السائرين إلى اللَّه بصدق. قال النبي المصطفى ﷺ: « **مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ. أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ! أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ!** » (١).

* * *
* *
*

(١) رواه الترمذي والحاكم. وصححه الألباني في صحيح الجامع.